الباب السادس

في العراق

"الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي
على عجمي إنما الفضل بالتقوى"

حديث شريف

obeikandl.com

وبعد فإنا لا نفهم حياة أبي حنيفة إذا لم نفهم حياة العراق وبخاصة حياة الكوفة، فالإنسان ابن آبائه وأقربائه. وأرضه وسمائه وأشيائه. ليست أعصابه التي يحس بها أجزاء نفسه فحسب، ولكنه يفكر بما في حدود الزمان والمكان من ماض وحاضر حتى المستقبل. ومن قريب وبعيد حتى ما لا يرى وما لا يدرك.

إن هذه الكرة تدور بالناس وليسوا هم الذين يديرونها..! وما أصغر ذلك الشئ البديع المسمى بالإنسان إلى جوار تلك الأشياء الجليلة التي تسمى بالدنيا. وإن كانت من دونه ليست هي الدنيا.

ذر قرن الفتنة بين المسلمين قبل أن يوارى الرسول في التراب، وتزاحم الأنصار والمهاجرون على الخلافة، وتولى أبو بكر فعمر فعثمان ثم بايع الناس عليا. واندلع لهيب الحرب الأهلية بينه ومعه أهل الكوفة وبين طلحة والزبير ومعهما أهل البصرة، وأظفر الله عليا في واقعة الجمل فنازلت جيوشه في صفين جند الشام إذ رفض معاوية ومعه أهل الشام أن يبايعوه، حتى إذا افتر له ثغر النصر رفع جيش معاوية المصاحف محكما كتاب الله، وقبل علي التحكيم فخذه الحكمان، وخرج عليه من جنوده طائفة سميت بالخارج تسائله: "لم حكمت فيما هو حق لك؟" وهزمهم بالنهروان. وفيما هو يتجهز لحرب معاوية نجحت مؤامرة الخوارج فيه فقتلوه غيلة. وأخفقت المؤامرة في عمرو ومعاوية. واستتب الأمر لمعاوية فأخذ البيعة لولده يزيد بالسيف فوق أعناق الزعماء "الحسين بن علي وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر" ودعا الوفود ليتكلموا فتقدم يزيد بن المقفع فألقى خطبة الخطب. قال:

أمير المؤمنين هذا. وأشار إلى معاوية.

ثم قال: فإن هلك فهذا وأشار إلى يزيد.

ثم قال: فمن أبى فهذا وأشار إلى السيف.

قال معاوية: اجلس فإنك سيد الخطباء.

ولقد كان الرجل بحق سيد خطبائه. فتلك لغة السيف، والسيف أصدق أنباء. ولما تولى يزيد ثارت المدينة فأسكت جند الشام صوتها بالرماح، وبعثت الشيعة (أنصار علي بن أبي طالب) من أهل الكوفة إلى الحسين يبايعونه فسار إليهم مع أهله، فقتل هو، وإخوته، وأبناء عمه في كربلاء.

وفي سنة ٦٤ سارت جنود الشام إلى مكة تقاتل عبد الله بن الزبير. إذ بايعه أهل الحجاز ومصر والعراق واليمن، أما الشام فتولى عليها مروان بن الحكم ثم ابنه عبد الملك بن مروان. وولى عبد الله بن الزبير على الكوفة المختار بن عبيد ثم عزله بأخيه مصعب بن عمير، ودعا المختار بن عبيد بالكوفة للعلويين (لمحمد بن الحنفية أخ الحسين) فقتل. وسار عبد الملك بن مروان بجيشه إلى العراق ومعه الحجاج بن يوسف الثقفي، فما هو إلا أن التقوا فحولت جموع الكوفة برءوسها ومالت إلى عبد الملك، وقتل مصعب بن الزبير وقدمت رأسه هدية لعبد الملك!

وتولى الحجاج على العراق بعد قتله عبد الله بن الزبير بمكة فأخذ يبري الرقاب حتى سالت الدماء إلى أبواب المسجد والسكك، وخرج عليه ابن الأشعث ومعه العلماء، ومنهم الشعبي فقيه الكوفة، وسعيد بن جبير فقيه البصرة، وعبد الرحمن ابن أبي ليلى. وتزاحف الجمعان في دير الجماجم. وانتصر الحجاج فدخل الكوفة وأدار وجهه يحاسب العلماء. عفا عمن عفا عنه كالشعبي وأهدر دم من أهدر دمه كابن جبير فضرب عنقه.

وآلت الخلافة بعد عبد الملك إلى ابنه الوليد فكان ميمون الطائر بما وسع من رقعة الإسلام في أفريقية.

وفي سنة ٨٥ فتحت جزائر البحر الأبيض. وفي سنة ٨٩ فتحت صقلية وفي سنة ٩٣ خفقت أعلام الإسلام على سواحل الأطلسي في الأندلس، ووقف موسى بن نصير في ربوعها يفكر في فتح أوربة.. فأشاروا عليه بالتلبث: فمكث يقول: أما والله لو انقادوا إلي لقدتهم إلى رومية!

وفي الشرق بلغت كتائب المسلمين الصين.

وفي ولاية هشام بن عبد الملك ثار زيد بن علي بن الحسين فقتل. وفي سنة ١٢٥ خرج ولده يحيى بن زيد فقتل في خراسان.

وفي سنة ١٢٧ خرج الضحاك بن قيس على رأس الخوارج فاستولى على الكوفة وثارت الثائرة بين بني أمية وانتهت بتولية مروان بن محمد سنة ١٢٧. فلم يكد يهزم الضحاك حتى ثار عليه أبو مسلم في خراسان ودخل مرو في سنة ١٣٠ ونيسابور سنة ١٣١. وجاء رسله إلى الكوفة فولوا أبا العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس سنة ١٣٢، وكان التيار في الكوفة يجري نحو أولاد علي بن أبي طلاب فحوله أنصار العباسيين إلى بني العباس. وهرب مروان إلى مصر حيث قتل.

وفي سنة ١٣٦ تولى أبو جعفر المنصور الخلافة حتى مات سنة ١٥٨ بعد وفاة أبي حنيفة بثمان سنوات.

* * *

في هذه الصورة المتحركة عرض لأقطار العالم الإسلامي وبلدانه: أما المدينة فغنية بتاريخها عن التعريف، وأما البصرة فقد أمر بإنشائها الفاروق عند ملتقى دجلة والفرات (سنة ١٤ – ١٧) لتكون معسكرا تلتجئ إليه الجيوش من برد الشتاء، فبنى أبو موسى الأشعري مسجدها من اللبن وسرعان ما احتدم فيها الشغب وازدهرت فيها الحضارة. وفي سنة ٣٦ وقعت في ضواحيها وقعة الجمل، وفي سنة ٥٠ بلغ من نمائها أن ناهز عدد سكانها ثلثمائة ألف.

وفي (سنة ١٧ – ١٩) أمر الفاروق سعد بن أبي وقاص بعد موقعة القادسية أني بني الكوفة فأقيمت في موقع صحي على الفرع الغربي للفرات لا يفصل بينه وبين المدينة جسر ولا بحر، وصارت ملتقى الطرق ومفترقها بين الشرق والغرب، وبنى سعد مسجدها في وسط المدينة وبنيت إلى جواره دار الإمارة. فلم يكد ينتصف القرن حتى صارت أبنيتها من اللبن بعد أن كانت خياما وأكواخا. وعمرها أقوام من كل جنس. من شاميين ونبطيين (شمال شبه الجزيرة) وبدو وفرس، ولم تكد تبنى حتى سرت فيها روح الشغب فغير عمر ولاتها في السنوات الأخيرة لحكمه ثلاث مرات.

كانوا أول أنصار علي ولم تزل تتداولهم الهزاهز حتى أذاقهم الحجاج عذاب الهون نحوا من عشرين عاما (سنة ٧٥ – ٩٥) ولم تذق الطمأنينة بعد ذلك. حتى إذا ظهر العباسيون أقام أبو العباس بالأنبار، وأقام المنصور بالهاشمية، مثلما أقام الحجاج من قبل بواسط، بعيدين عن الكوفة وشغبها وشقاقها، وهي قصبة الإقليم في عهد بني أمية، وفي عهد السفاح والمنصور حتى بناء بغداد.

أراد عمر أن تكون الكوفة عاصمة للعراق بدلا من المدائن، وعمرها والبصرة بأفواج من المؤمنين الأولين من أصحاب الرسول ليشيعوا الحضارة الإسلامية العربية في الإقليم. لكن العراق صنع بالوافدين إليه وبمن أنسلوهم ما يصنع الإقليم العظيم، فصيرهم عراقيين بعد أن كانوا عربا وإن كانت تحمل حضارتهم وشخصيتهم الطابع المشترك الأعظم. طابع الإسلام.

شكت الكوفة منشئها وبطل العراق سعد بن أبي وقاص إلى عمر قائلة إنه لا يحسن أن يصلي!! وشكت البصرة أبا موسى الأشعري لأن له غلاما ختارا (غادرا) هو كاتبه زياد بن أبيه إذ كان له مائدة وبرذون. وعزل عمر أبا موسى وشاطره ماله.

ودعا سعد على أهل الكوفة ألا يرضيهم الله عن وال ولا يرضي عنهم واليا.

وكأنما تفتحت لهذا الدعاء أبواب السماء!

شكوا عمار بن ياسر الذي مات محاربا في صفين وهو في التسعين. وشكوا المغيرة ابن شعبة. وطردوا سعيد بن العاص.

لما قدموا على عمر يشكون سعدا – قال: "من يعذرني من أهل الكوفة – إن وليتهم التقي ضعفوه وإن وليتهم القوي فجروه". قال رجل: "أنا أدلك يا أمير المؤمنين على القوي الأمين"، قال: "من هو" قال: "عبد الله بن عمر" (ابنه) قال: "قاتلك الله: فمنذ اليوم لا أسميك إلا المنافق"، وقال: "المغيرة يا أمير المؤمنين إن التقي الضعيف له تقواه وعليك ضعفه. والقوي الفاجر لك قوته وعليه فجوره" – قال: صدقت فأنت القوي الفاجر. فاخرج إليهم". وفي فتنة ابن الأشعث بذل رجال الشورى نصحهم لعبد الملك بن مروان بعزل الحجاج عسى أن يصلح بال أهل العراق. لكن الحجاج كان بهم خبيرا فكتب إلى الخليفة: "والله إن أعطيت أهل العراق نزعي لا يلبثون إلا قليلا حتى يخالفوك. ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك. ألا ترى وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأِشتر على ابن عفان فلما سِألهم ما يريدون قالوا نزع سعيد بن العاص ولما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه؟ إن الحديد بالحديد يفلح".

وهكذا طفق مرجل الكوفة دائم الغليان، قرنا وربع قرن من الزمان، واستفحل نفوذ الخوارج بالعراق عامة فظلوا يرون خلافة الأمويين غصبا وأمروا أمراء منهم خاصة.

أما شيعة علي فاتخذوا في الكوفة والبصرة مراكزهم الرئيسية. وما يزال لهم للآن عشرات من الملايين في العالم الإسلامي. كانوا يرون أن عليا أحق بالخلافة من الخلفاء السابقين. ويقولون إنه وصى النبي على المسلمين. وتطورت الفكرة فصار منهم من يقول إنه معصوم، وغلا البعض فألهوه، وانشعبت الشيعة شيعا وأفراقا حاربها بنو أمية حربا ضروسا، فقتلوا أولاد علي وأسباطه كل قتلة. حتى كان الأمير الأموي يقول: لأن يقال كافر أو مشرك خير من أن يقال من نسل علي!

وظلت المدينة خاصة الحجاز عامة معتزتين بأهل بيت الرسول.

وفي عام مائة كانت ظلال الأمويين آخذة في الانحسار، وشرعت الريح تجري رخاء لسفائن الشيعة يزجيها دعاة بني العباس. فألف علي بن عباس جمعية سرية ذات شعبتين تدعو لأهل بيت النبي، وكانت الكوفة مقر إحدى الشعبتين ومقر الشعبة الثانية خراسان. فلما دخلت جيوش أبي مسلم إقليم العراق كانت الكوفة قصبة المدافعين كما كانت مخبأ الثوار.

بويع لأبي العباس بالخلافة حيث تلاقت بالكوفة الأولوية المظفرة لقواده. فأخذ يعمل في ظمأ لا يرتوي ليكون جديرا في التاريخ باسمه (السفاح). وراحت سيوف العباسيين تحصد الرءوس وتقذف الجماجم، ولما لم تروها بحار الدم شرعت تنبش القبور.

بدءوا بقبر معاوية وثنوا بقبر يزيد، وانثنوا إلى قبر عبد الملك، فلم يجدوا ما يصنعون فيه مثلة. ثم وجدوا ضالتهم في قبر ابنه هشام. فألقى السفاح جثته لم تبل بعد فضربها بالسياط.. وصلبها.ز وحرقها. ثم ذراها في الهواء.

وفي هذه المجزرة التي ملأت الخياشيم برائحة الدم، عبر النهر سباحة إلى أفريقية فتى لم يكد يطر شاربه بعد، هو عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك. عبر البرزخ إلى أسبانيا سنة ١٣٩ ليمكن في اثنين وثلاثين عاما لحضارة وضع قواعدها موسى بن نصير وطارق بن زياد. فأنشأ – على التعبير الحربي – رأس جسر حاول الشرق أن يغزو منه الغرب وأن ينقل خلال البحار، والأجيال، تلك المدنية التي ازدهرت في فجر التاريخ في أينا واسبارطة وفارس وروما وبيزنطة، فانبعثت حركة الإحياء العلمي RENAISSANCE من مرقدها بعد أن مرت في طريقها – كالرسالات وكالبرد المائية والهوائية – بالشرق الأدنى ودمشق والقاهرة والقيروان وما إليها.

ولقد يخيل إلى الناظر أن هذه القلاقل كادت تنزف دم الأمة، لكنها في الواقع كانت اهتزازات الجسم الذي يحاول أن يستقر، ليستمر، وامتحانا لقوى أمة جمع فيها الدين الجديد من كل عنصر، فثبتت على الامتحان، وكان ظهور الدولة العباسية آية على ما في ذلك الثبات من فيض القوة ووفرة الفتوة.

كان القرن الأول استجماعا لقوى الأمة، واستعدادا لعهدها الجديد، فلقد أدت الإمبراطورية السياسية التي وطد أركانها معاوية وخلفاؤه رسالة هي حسبها، وآن للطور الثالث من تاريخ الأمة أن يجئ وهو طور الحضارة كما سماه ابن خلدون. لم تكن هذه الهزات الدموية التي ألفها كيان الأمة إلا كأوجاع المخاض تبشر بالوليد الموعود، لتخلد حضارة الإسلام نفسها في الوجود، بأسلوب جديد.

وإذا كانت دولة بني أمية قد نشرت ألوية الإسلام بالغزو، فقد كان على الدولة الجديدة في وديان دجلة والفرات أو دولة الأندلس أو الدول الناشئة على ضفاف النيل وساحل البحر الأبيض، أن تنشر الحضارة الإسلامية بفتوحات الفكر، وأن تبعث بآثارها في مهاب الرياح الأربع.

* * *

فتعالوا إذن أيها المفكرون، واحدا إثر احد، واسكبوا في تيار الحضارة الذي لا يتوقف إلا ليندفع، تلك الفيوض الدافقة من النور. وليحس كل منكم ذلك الحنين المعذب إلى الابتكار. وليكن منكم الغواصون في أعماق الحكمة والعلم.. لقد دنت فترة انتقال وأنتم همزة الوصل، فصلوا الماضي بالحاضر، وقولوا كلمة الفكر، إن كلمة الفكر هي العليا.

انطلقت العقول الإسلامية ظمآى تكاد تموت من الصدى. بدأت بالترجمة، فنقلت إلى العربية من اليونانية والسريانية والفارسية والنبطية والهندية، ولئن صح أن اسطفان وماريانوس وابن أبجر قد ذكروا العرب في أواخر أيام بني أمية بالعلم اليوناني حتى جعل عمر بن عبد العزيز ابن أبجر رئيسا للمصلحة الطبية، وأن خالد بن يزيد كلف البعض بنقل بعض كتب الصنعة، أو وجد عرب يجيدون اليونانية كصالح بن عبد الرحمن وعبد الله بن عبد الملك أو سالم أحد رجال هشام بن عبد الملك، إن هؤلاء لم يكونوا إلا طلائع الركب الضخم، الذي بدأ على يديه رحلة العلم، من العالم القديم إلى العالم الجديد في عهد المنصور يتقدمه جرجس بن جبرائيل وقد كان طبيبا للمنصور ولبيمارستان جند يسابور.. ثم توالت الأسماء تترى: قسطا بن لوقا وسيد النقلة روزبة (ابن المقفع) ينقل كليلة ودمنة وخداينامة (السير). والحسن بن سهل والبلاذري،

ينقلون من الفارسية، ومنكة وابن دهن الهنديان ينقلان من الهندية، وابن وحشية ينقل من النبطية كتبا في الفلاحة. وأخذ الرشيد يبعث الرسل في كل مكان ليجيئوه بالكتب ليعربوها، وجاء المأمون بعده يصنع أكثر مما صنع، وانتقل الروح العلمي إلى وجوه الدولة وإذا ببيت كبيت بني هاشم المنجم في منتصف القرن الثالث يشجع على العلم رجالا كحنين بن إسحاق، وحبيش بن الحسن، وثابت بن قرة، يدفع لهم شهريا خمسمائة دينار لترجمة والتعريب، كما أنشأ الرشيد (بيت الحكمة) وعين فيه الفضل بن نوبخت للقسم الفارسي (الكتب الفارسية)، وابن ماسويه من جامعة جند يسابور للقسم اليوناني (الكتب اليونانية) للمحافظة على ما يترجم من كتب ولنشر ما تتضمنه المترجمات من علوم، وأنفذ إلى بلاد الروم سلما صاحب بيت الحكمة والحجاج بن مطر وغيرهما ليبحثا عن طرائف الكتب.

وهكذا أضيف إلى ثروة الأمة التي كان ينحصر تراثها العلمي – في الجاهلية – في علم النجوم والقيافة والآداب والأنساب رؤوس أموال ضخمة من الرياضة والفلك والمنطق والفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والجغرافيا والنبات والحشرات وغيرها. وتعرف العرب إلى فيثاغورس وإقليدس وجالينوس وبطليموس وأفلاطون وسقراط وأرسطو، وإلى النظم السياسية والإدارية. وانطلق الفكر الإسلامي في حريته إلى أبعد الحدود حتى لترى بيتا كبيت (أبي الجعد) فيه ستة إخوة. اثنان شيعيان واثنان مرجئان واثنان خارجيان.

وكما اهتم المنصور بالفلك والطب، عني الرشيد بالرياضيات وأولع المأمون بالمنطق والفلسفة، وأضيفت إلى أسماء المترجمين السابقة أسماء آل بختيشوع وأبي بشر متى بن يونس ويحيى بن عدي واسطفان بن باسيلي ينقلون من السريانية إلى العربية. وعلي بن زياد اليمني وإسحاق بن زيد ينقلون من الفارسية. ثم انتقل العلم كدورة الشمس من المشرق إلى المغرب. فظهر ابن باجه وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون وأمثالهم، ولم تبق الترجمة سبيلا للعلم وحده بل أصبحت وسيلة للمعاش. فإذا بابن الهيثم يبيع في كل عام نسخا ثلاثا من نسخة هي (إقليدس) و(المتوسطات) و(المجسطي) بمائة وخمسين دينارا يعيش مها طول العام.

ولم تكن الأعوام المائة الأولى من تاريخ الدولة العباسية التي وصلت العرب بالعلوم الأجنبية قد بدأت بعد حين كانت النهضة الفقهية التي يحمل أعلامها أبو حنيفة قد سجلت روائع آياتها في جامع الكوفة، ولم يكن المنصور قد مرض بعد في سنة ١٤٨ مرضا ظنه مرض الموت فاستقدم لعلاجه (جورج أو جرجس) من جامعة جند يسابور وأبل على يديه فأنزله وعلماء جند يسابور أرفع المنازل في بلاطه، وورث حفيده جبريل هذه المنزلة في بلاط الرشيد حفيد أبي

جعفر. وإذا كان جرجس أول من ترجم للمنصور فإن أبا حنيفة قد أنهى رسالته في سنة ١٥٠ قبل أن يقدم جرجس تراجمه للعقول.

فالفقه الإسلامي الذي دوى صوت إمامه في النصف الأول من القرن الثاني كان أثرا للوثبة الإسلامية الخالصة التي وثبها أبو حنيفة.

وإن المرء ليتساءل لماذا سبق الفقه في ميدان النهضة الفكرية كل العلوم؟

والجواب عن ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت تهتف بها غريزتها أن تخلد نفسها، وليست سبيلها إلى ذلك التخليد عمارة أو نحتا أو تصويرا كما صنع الرومان والمصريون واليونان. فتلك كانت مفاخر دون مفخرة الأمة الإسلامية التي يحويها كتابها من شريعة وعقيدة، فكان طبيعيا أن تندفع مواهب الأمة الكبرى نحو أول مقومات الإسلام وهو الشريعة، وبهذا تناهت إلى حلقة الكوفة أصوات الفقهاء السابقين والمعاصرين فرددوها بلسان الزعيم الفكري الذي قدرته العناية الإلهية لنصرة الدين، وتلت هذه الوثبة الفكرية الوثبة السياسية التي عاصرت في تحضيرها وظهورها حياة أبي حنيفة العلمية، وهي قيام الدولة العباسية، ثم انبعاث تلك الفكرة التي خلدت بها الحضارة العباسية نفسها بإنشاء المدينة التي لم ير مثلها الزمان إلى ذلك الزمان (بغداد).

ليست مصادفة تلك التي جعلت بالعراق حلقة أبي حنيفة كالجامعة في النصف الأول من القرن الثاني بالكوفة حيث كان محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وابنه إبراهيم الإمام من بعده يمهدان للدولة الجديدة في الكوفة وفي خراسان حيث الكثرة الغالبة من الموالي والفرس.

وليست مصادفة أن يكون فقه الدولة الجديدة هو فقه مدرسة الكوفة، وأن يعمد أبو جعفر إلى الانتفاع به في المدينة الجديدة فيكره أبا حنيفة على التعاون معه، ويتناهى الرشيد في الإعجاب به فيكلل بالمجد هامات تلاميذه.

ليست هذه كلها مصادفة، ولكنها رواية الزمن متصلة الحلقات والظواهر بسطرها بالوقائع، ويترك للوقائع الكلام. وإنها يد العناية تحرك الإنسانية نحو مصايرها المحتومة تريد لرسالة الإسلام أن تصل بين عهدي الحضارة.

كانت حضارة العصور الأولى توشك أن تكون حديثا في التاريخ، وتوسطت عصور الظلمات تكاد تطمس شعاع الماضي في ظلام الليل المتكاثف، تحملت الحضارة الإسلامية إلى

العصور الحديثة أنوار القرون الأولى. ولم يخفت صوت المسلمين من جامعات الأندلس عند برزخ جبل طارق في الغرب سنة ١٤٩٣ إلا بعد أن كانت دولة إسلامية كبرى قد تسلمت برزخ القسطنطينية في الشرق من نحو نصف قرن سنة ١٤٥٣. وإذا كان فتح المسلمين للقسطنطينية يؤرخ بدء عصر النهضة والإحياء RENAISSANCE في العصور الحديثة، فأي مجد للإسلام ذلك المجد! وأين منه أي مجد سياسي وفتح حربي!

هذه النصرة التي نصرت بها الدولة العلم في المائة الأولى من حكم بني العباس، لم تكن لها مشابه في العهد الذي كان أبو حنيفة يدرس العلم فيه وفيما قبله للناس.

كان السفاح وأبو جعفر في العهد الذي عاشه أبو حنيفة في حكميهما، في شغل بالحرب مع خصومهما.

فالنهضة التي نهضها أبو حنيفة نهضها وحده. ولحساب الله لا لحساب أحد، وكانت نهضة أصيلة مقطوعة الصلات بالترجمات.

ولئن كان الطب قد استفاد مما ترجم في عهد المنصور أو تولته أيدي الأجانب، أو كانت الفلسفة وغيرها قد حدثت مع ما ترجم من فلسفة أجنبية، إن الفقه الإسلامي كان له من أصالته ونظم شريعته ومميزاتها الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية، وخصوبة تربته ووفرة منابعه، ما فاق ألواح الرومان الاثنى عشر، وشرائع صولون وليكرج، فلم يلتفت إلى ألواحهم أو شرائعهم أحد، ولم يترجم منها مادة، وبقى الفقه في صفاء جوهره نقي الصفحة خالص الديباجة. تجمعه العروة الوثقى في جملته وأجزائه بأصوله الجامعة في الكتاب الكريم وسنة الرسول.

زعم بعض المستشرقين أن هناك "آثار لا تنكر Indeaiable" من تأثير الفقيه الروماني في الفقه الإسلامي! وهو زعم يظهر بطلانه من أول نظرة بالنسبة لأبي حنيفة خاصة، والفقه عامة، وإذا كان لأبي حنيفة بصر بالفارسية، أو كانت تحيط به ثقافة منحدرة من المحيط الجغرافي والاجتماعي الذي توارثه العراق عن فارس، فإنه لم يظهر أثر للمترجمين أو للمترجمات في حياته مع اتساعها وطولها وكثرت الرحلات والاتصالات، ولقد كان الفقه في حلقته وفي سائر الحلق بالمسجد الجامع إسلاميا صراحا في منابعه وسواقيه، لم يأخذ عليه أحد من خصومه أو مؤرخيه أنه تأثر بشئ أجنبي أو عالج أثرا أجنبيا.

وإذا كانت معاملات الفرس قد تأثرت بمعاملات الرومان أو اليونان عن طريق الشام. فلا أثر للفرس ولا للرومان في الشريعة. ولا يسمع القول بوجود التشابه أو التأثر إلا بعد أن تقدم

الخصوصيات المتشابهة التي يستند إليها الزاعمون في الأصول والفروع، وفي اتجاهات التشريع، وهو ما لا يسوقه إلينا القائلون بوجود هذه الآثار "التي لا تنكر"، كما لم يدلونا على القواعد المشتركة والتفاصيل المتفقة، حتى تقبل الدعوى شكلا، لتناقش موضوعا، كما يقول رجال القانون.

وليس بسائغ أن يتلقف المؤرخ جزئية من الجزئيات، أو شبهة أو صدفة في مظاهر التفكير، ليقال من جرائها بتشابه الفقه في الشرائع. فكل شريعة تقوم على قواعد من أصول التفكير البشري توافق العقل. وإذا تشابه العرف في البلدين فتشابه حكمه فيهما فلا وجه للقول بتشابه الشرائع دون الالتفات لتشابه العادات.

ومن المسلم أن صلة الترجمة العلمية المؤكدة باللغة اليونانية والسريانية لم تظهر في عهد أبي جعفر أي بعد سنة ١٣٦ حين كانت مدرسة أبي حنيفة قد بلغت أوجها في مسجد الكوفة، وكان أستاذها في أواخر عقده السادس يرأس الحلقة نحو ستة عشر عاما.

أما الشافعي فقد ترعرع بين الشام والحجاز واليمن والمدينة ومكة، حتى إذا انتقل إلى بغداد ومصر في خاتمة القرن لم يظهر على فقهه أثر من الآثار التي ادعاها المستشرقون. والذين تتبعوه في دراساته ومقولاته يدركون كيف كانت كلها إسلامية خالصة.

فأما مالك فكانت عمدته السنة وفقه المدينة.

وأما ابن حنبل ففقهه كله السنة.

وفي سنة ١٩٣٧ قرر مؤتمر لاهاي ما قرره مؤتمر واشنطون أخيرا في سنة ١٩٤٥، أن الشريعة الإسلامية مصدر للقانون مستقل عن مصادر اليونان والرومان.

* * *

لم يكد المنصور يلي الخلافة حتى راح يحارب الشيعة حربا ضروسا في العراق وفي كل مكان، كأنما كتب القلق على هذا الإقليم حتى ولو صارت إليه مقاليد الأمور.. وكأنما كتب عليه أن يثور حتى على ذاته!

ولكن ما لهذه الثورات تحمل الخير مع الشر!

وما لكفة الخير فيها ترى غالبا أرجح! إنها ثورة جهال فيظهر فيها العلم، أو ثورة على الحق فيخرج الحق منها أبلج وضاح الجبين كالشمس بعد السحاب!! ولقد تكون ثورة دهماء فتكشف عن انتصار المعاني الرفيعة في الحرية أو في الدين أو الاقتصاد أو السياسة أو غير ذلك..!

إن الهدوء ليس الاطمئنان، والسلام الدائم ليس سلامة دائما. أو كما يقول الشاعر:

* وحسبك داء أن تصح وتسلما *

فلا عجب فيما يقول "هيجو" عن الثورة الفرنسية: "كان فيها من كل شئ، من الكفر والإيمان، ومن الجهالة والمعرفة، ومن العدالة والظلم. ومن الفوضى والنظام، ومن الطغيان والتسامح. ولا عجب أن تنجلي تلك المتناقضات عن تحرير أوروبا، فأنشأ الثورة إيطاليا وألمانيا، وأطلقت الفكر الإنساني من عقاله،وجمعت بين الدين والتقدم. وأعلنت حقوق الإنسان ومكنت للتقدم الصناعي والاقتراع العام ومساواة المرأة بالرجل".

فإذا رجعت إلى العراق رأت عيناك مصداق ذلك. بلدا يثور قرنا من الزمان، على نفسه حينا وعلى غيره دائما، دون أن ينضب معينه، بل إن الثورة لتقويه، وتزكي أنفس الناس فيه، في رقعة منبسطة من الخصب والحضارة وامتزاج العناصر. تبدأ من الجنوب الشرقي للصحراء السورية عند الحدود الفارسية إلى جبال حلوان، من عبدان إلى الخليج الفارسي. فتشمل بلاد الأشوريين والبابليين وشبه الجزيرة مما يرويه دجلة والفرات ويتصل بسوريا وآسيا الصغرى وفارس والبحر، حيث ترتبط في نشاط تجاري بآسيا الوسطى وبالهند وشرق أفريقيا وشواطئ البحر الأحمر. يعمرها مع المسلمين فرس يدينون بالزراداشتية أو بالمسيحية، ومانويون يدينون بمزيج من الزرادشتية والهندية والمسيحية، وحرانيون لهم عقائد خاصة، كما تسربت الحضارة اليونانية إلى الإقليم منذ غزوات الاسكندر. وبعد أن أنشأ كسرى مدرسة جند يسابور في كوزستان استمرت المدرسة ثلثمائة عام برغم زوال ملك الفرس وقيام الحضارة الإسلامية، فظلت تدرس الطب والفلسفة واليونانية، وساعد رجال من سوريا في نقل أطراف من الحضارة اليونانية بدراستهم لأرسطو وكتب الطب وكتب الحساب لأبوقراط وجالينوس ودسقوريدس وإقليدس وأمثالهم، ونقلهم مؤلفاتهم إلى السريانية. كما ساعد أهل حران على التوسط بين الحضارة اليونانية والعرب عامة لاحتفاظهم بالدين المسيحي وبالصلة ببيزنطة. وبهذا كانت مدرسة جند يسابور محط أنظار أهل حران وقساوسة شبه الجزيرة، كما كانت القناة الفكرية التي وصلت بين العرب والحضارة اليونانية خلال فارس.

في هذه البقاع ترعرعت حضارة يانعة تكتنفها ديانات متتابعة. الزرادشيتة تسبق المسيحية بنحو ستة قرون. واليهودية في الشمال تسبق الزرادشتية بنحو تسعة قرون. ثم المسيحية تنزل قبل الإسلام في شمال جزيرة العرب بنحو ستة قرون أخرى. كأنما اختصت السماء بأسرارها غرب آسيا في تلك القرون العشرين.

وكان العراق محسوبا على فارس وموصولا بها على الوجه الذي بينا، بحكم تاريخه وموقعه وجنس سكانه وطبيعة إقليمه، فتجمعت فيه أخلاط من المدنيات والجنسيات والآراء لم تشهد مثلها جزيرة العرب. وأرهف حس بنيه ذلك الانفعال المستمر في حدة وعرام لم يشهدهما بلد إسلامي، فعلم العراقيين أن الحياة كفاح مستمر، لا يسكن إلا أن تسكن النفس كونها الأبدي.

وإذا عاشت الجماعة في انفعال وانبعاث مستمرين برزت – كالفرد – ملكاتها إلى الوجود فاستثمرت كل ما في كيانها من قوة وفتوة.

ومنك لتلك النزعات في نفوس أهل العراق دين يحبب الجهاد في سبيل الاعتقاد.

احتفظ العراق دائما بشخصيته حتى إن عمر لما دون الدواوين كانت لغة ديوان العراق هي الفارسية إلى أن نقله الحجاج في سنة ٧٨ إلى العربية، ومع ذلك ظلت الحسبانات بالفارسية، ويبقى أغلب كتاب خراسان مجوسا. أما في خراسان – وكانت تحكم من العراق – فقد كان نصر بن سيار أول من نقل الكتابة إلى العربية من الفارسية في أواخر أيام بني أمية. ولما أنشئت البصرة كان الناس يتكلمون فيها بالفارسية، فعنيت بالنحو واللغة لحاجة الناس فيها إلى العربية. كما غدت مركز حركة علمية تجلت في علم الكلام وفي الاعتزال. على رأسها الزعيم الجسور الحسن البصري، وقد قيل إن الحكمة التي رزقها جاءته منذ كانت أمه تخدم أم سلمة زوج النبي فكانت أم سلمة تناوله ثديها إذا بكى.

obeikandl.com

ولما جاء العراق بالدولة الجديدة وأنشئت بغداد آذنت الدنيا بعهد جديد وبقى العراق جوهرة التاج ومفخرة الخلفاء، حتى إن المأمون بعد نحو قرن من خلافة بني العباس ليباهي به عجائب الكنانة!

جلس في تواضع العالم بين إخوانه العلماء – وكان يسميهم إخوته – إذ قدم إلى مصر في أول سنة ٢١٧ وقال: لعن الله فرعون حيث يقول: أليس لي ملك مصر. فلو رأى العراق وخصبها؟ فرد سعيد بن عفير عن مصر بقوله: يا أمير المؤمنين لا تقل هذا. فإن الله عز وجل قال: (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون)، فما ظنك يا أمير المؤمنين بشئ دمره الله هذا بقيته!!

obeikandl.com